في اليوم الوطني للمطالعة (٢٢ نيسان)
في المطالعة... والكتابة!

د. جهاد نعمان*

إلى طلابي الجامعيين

لعلَّ من أهم ما نكتبه في «اليوم الوطني للمطالعة»، التوجّه إلى الفتيان الذين يَرِدون منهل الكتابة في المجلات والجرائد من النصح لهم في الاكباب على مطالعة ما كتب كبار المنشئين من القدماء والمعاصرين. وهنا نصيحة يمكن توجيهها إلى طلابنا وتلامذتنا كافة بعدما نَدَرَ بينهم مَن يطالع أكثر من كتاب واحد في السنة الواحدة!

وعلى مَن شاء الكتابة والإجادة فيها أن لا يقدم على نشر ما يكتبه مما يحسبه آية في فصاحة الإنشاء وبلاغة التعبير وحسن التصور وبراعة التخييل قبل أن يكتب عشرين بل ثلاثين مقالة يسدل عليها حجب النسيان ويحجبها عن الأعيان ويصون ألفاظها عن الآذان. ثم بعد هذا إذا استحسن مقالة أنشأها في أحد الموضوعات التي يتغلَّب هواها على نفسه، مما يكون بطبعه مهيّئاً للإجادة فيه، فليعد تبييضها المرة بعد المرة لإصلاح الأغلاط النحوية واللغوية واختيار أفصح الألفاظ وأكثرها مناسبة للموضوع. ثم عليه بعد ذلك كله أن لا يسترسل إلى استحسان ما ولدته قريحته، بل فليقصد كاتباً قديراً أو أَديباً محلِّقاً أو ناقداً سليم الذوق في فهم الكتابة، وليقرأ عليه تلك المقالة. والأَولى أن يتركها عنده

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الفرع الثاني.

اوراق جامعية عدد ١٤/١٥/١٦ سنة ١٩٩٧ - ١٩٩٨

ليقرأها في إحدى خلوته ثم يأتيه بعد أيام فيُبصِرُه بمواضع الخطإ منها. وعليه ألاّ يخجل من طلب رأيه في طيّها أو نشرها بل فليلحَّ عليه في أخلاص النصح له. فليس من عارٍ في طي مقالة فطيرة بل العار كل العار في نشرها والتعرض لقدح القادحين وسخرية العائبين ولو حجب كثيرون اليوم عندنا الحقيقةَ في غير ميدان تحت أضواء تبهر ولا تشفي الغليل. وما قلناه عن الإنشاء يجب اتّباعه كل الاتباع في نظم الشعر.

إن بعض المفتونين ببنات قرائحهم وخطرات أفكارهم قد يعتبرون أن ما قلناه شديد عليهم اتباعه بل هو سدّ بينهم وبين النَّظم والإنشاء، ويذهبون إلى أنه أهون منه عليهم هجر الأقلام ورمي هذه الصناعة بالصدود. ورأيُنا أن رمي الأقلام بالصدّ والهجران لَأهون على القرّاء الذائقين من احتمالهم قراءة نص بارد واستماع ألفاظ كاسدة وتخيّلات فاسدة. وإن مقالة أو قصيدة واحدة تكتَب بذوق واتقان لخير من مئة متداعية الأركان فاسدة البنيان.

يظنُّ بعضهم أنه مرّن على الإنشاء والنظم لأن صحفاً نشرت قصائده وفتحت مجلاتٌ صدراً رحباً لنصوصه ورفعه التلفاز إلى مقام الأديب الأريب، وان ما قد ينتقَد من نظمه ونثره قد ينتقَده لدى أكابر الشعراء وأمراء الإنشاء، وإنه لا يسلم المرء من حاسد يقدح وعدو يطعن. ولكن، يقال لهذا المعجب بنفسه المغرور برأيه: لو أن جميع وسائل الإعلام عندنا ـ ولاسيما التلفاز ـ تنقد ما تنشره لَما كان فيها موضع لمثل نظمك ونثرك وشتان ما بين فرسان الإنشاء وأمراء النظم والنصح له...

إن المُنشئين والشعراء في أكثر الأمم لا يبلغون المنزلة الرفيعة التي نقرأ أخبارها في كتبهم وصحفهم ونسمعها (ونشاهدها) في شاشاتهم الصغيرة أو إذاعاتهم... إلاّ بعد أن يكونوا قد زاولوا صناعة الكتابة بلغاتهم دهراً ولا ينال منهم تلك الشهرة البعيدة التي تصل إلينا إلاّ أفراد خُصّوا بالألمعية وسهروا الليالي درساً وتحصيلاً ومارسوا فنون القلم ردحاً من العمر. ولا عبرة بما يتشدَّق به بعض مُدَّعي المعارف من أن قلّة المجلّين عندنا في حلبة الكتابة والشعر

والمبدعينَ في ميدانهما حادث عن غنى لغتنا أو هو عيب من عيوبها ولله درّ الشاعر:

وعيّرها الواشي وقال طويلة وما حاز كل الحسن إلاّ طوالها

أو إنه قصور في ضروب تحصيل فنونها وتقصير من مؤلّفي مطولاتها... لا ننكر صعوبة تعلُّمها وطول الطريق ووجوب اختصاره على المتعلمين. ولكن، هَبْنا اختصرنا الطريق لتعلُّم إحدى اللغات الأجنبية، فهل يحسب هؤلاء المدّعون أنهم يبلغون منها المستوى الذي يحلمون به على ما فيهم من الضعف والكسل؟

تريدين لقيان المعالي رخيصةً ولا بدّ دون الشهد من ابر النحل

أوَلا يعلمون أن أكابر العلماء الأجانب لا يزيحون أيديهم عن المعاجم في كل وقت مع ضيق لغاتهم بالنسبة إلى سعة لغتنا؟ وأين هؤلاء الفتيان من ذلك وبينهم مَن تمرُّ عليه الأيام الطويلة ولا يلمس معجماً من معاجم اللغة؟ بل لا يكاد يقرأ شيئاً مما يكتب أحياناً في المجلات والصحف الرصينة وغيرها من النصوص الفصحاء وانتقادات البلغاء ليصلح انشاءه ويجتنب اغلاطه فكأنَّ كلاً منهم عاشق خطراته ومغرم بعرائس أفكاره وطريقة املائه وحوك تخييله. وإذا قيل له: «غلطت»، قال: «دعونا من ثقالة النحويين وتقعُّر اللغويين». ويطلب بعد هذا أن يُعَدّ من حملة الأقلام!

في اليوم الوطني للمطالعة، ندعو جميع الذين يضنّون بصيتهم من الشباب، عن عرضه للاستخفاف والامتهان، ويودون أن يصبحوا يوماً من الكتّاب والشعراء الذين تفتخر بهم الأوطان، أن يصبروا على تهذيب قولهم وأحكام لفظهم وإصلاح أغلاطهم، ويثابروا على المطالعة وتفهّم اللغة. هذا، ما لم يعطوا ملكة الانشاء والنظم.

قد تتوارد أحياناً خواطر فئة من الشباب كما تتوارد الخواطر بين أكابر الشعراء والمنشئين وسائر المخترعين. ولكن، لو أقبل الكثيرون على مطالعة الكتب والمجلات والجرائد الرصينة، ولاسيما في الموضوعات التي يميلون إليها، لوجدوا أنهم سُبقوا إلى أكثر ما قالوه، بل إلى ما ظنوا أنه لم يوحَ إلى

سواهم. والكثيَر من ذلك بين منظوم ومنثور ورد في لفظ أنقى وتعبير أبلغ وأوضح وتركيب أفصح. وإن ما حسبوه بدع أذهانهم ومخلوق أفكارهم ومصوغ ألفاظهم، لا يُعَدُّ شيئاً في جنب ما تَقَدَّمه. وإنهم لو انصفوا أنفسهم وصبروا على معجون قرائحهم حتى يبلغ الاختمار عبر المطالعة على الخصوص، لَما كان إليهم في ذلك سبيل للملام.

فلنطالع جميعاً، وليس الكتّاب الجدد وحسب، ما استطعنا من الأسفار النفيسة. وهل ترى أوجاعنا المختلفة تهجع دون أن يقرأ «كبيرنا» قبل «صغيرنا». وبعد، هل ثمة أسوأ من الجاهل الفاعل؟